الأوبئة وفلسفة الفن

Epidemics and the Philosophy of Art

د . زينب لوت
(المدرسة العليا للأساتذة مستغانم- الجزائر).

الملخص:
يلامسُ الفنان الواقع من أجل محاكاة الوجود وتمثيله جماليا عبر اللغة أو التشكيل اللوني أو المسرح لذلك يعد الوباء من الأمراض التي تهدد حياة الانسان ومن خاصيتها الانتشار والعدوى التي تحدث في إطار تدريجي حتى تتسع ويصبح خطرها أكثر تهديدا للموجودات الكائنة، لذلك يكون التعبير عن الذات فلسفة بقاء ومقاومة للفنان، هي ملحمة يثيرها الفنانون درءا للنسيان وتخليدا للأزمات وأثارها على البشرية، تتكون الدراسة من محاور حول المفاهيم الأولية للأوبئة، الحكي وتأثيره في زمن انتشار الفيروسات والامراض، الرسم وعلاقته في تشكيل اللوحة الوبائية.
إشكالية الدراسة: ماهي الفلسفة الفنية في خضم المعناة الوبائية؟ كيف توظف الآثار الأدبية صورة الوباء؟ هل اللون تشكيل للحس النفسي للأوبئة وتصميم للحياة بين التعايش وأمل التعافي؟ أين يقع الفنان في تجسيد المعاناة أم في تبئير الذات والآخر عبر الجمالية التي تفتح أفق التوقع؟
الكلمات المفتاحية: الفن- الفلسفة- الوباء- المحكي- الرسم- المسرح-الأثر.

Summary:
The artist touches reality in order to simulate existence and represent it aesthetically through language, chromatic composition, or theater. Therefore, the epidemic is a disease that threatens human life and its characteristic is the spread and infection that occurs in a gradual framework until it expands and its danger becomes more threatening to the existing assets, so self-expression is a philosophy of survival And resistance to the artist, it is an epic that artists raise in order to ward off oblivion and perpetuate crises and their effects on humanity, the study consists of axes on the initial concepts of epidemics, narration and its impact in the time of the spread of viruses and diseases, drawing and its relationship in the formation of epidemiological painting.
The problem of the study: What is the artistic philosophy in the midst of the epidemiological meaning? How do literary monuments employ the epidemic picture? Is color shaping the psychological sense of epidemics, a design for life between coexistence and the hope of recovery? Where is the artist located in the embodiment of suffering or in focusing on the self and the other through the aesthetic that opens the horizon of expectation?

Key words: art - philosophy - epidemic - spoken - painting - theater - impact.

مقدمة:

يُـدرك الكاتـب والفنـان في علاقتـه الكونيـة مجـال تميـزه الفكـري، درجـة حضـوره وقيمـة التَّصـوِير المجسِّـد كينونتـه الفنيـة عبر الآثـار الّتي تتركهـا التّغيرات الوجوديـة نحـوه وكيفيـات التّـأثر والتّـأثير الجمـالي لتحويـل قـدرة الفهـم إلى ميـول ابـداعي تشـكيلي للفـن، يتمركـزُ الكُتـابُ والرسـامون حـول القضـايا المهمـة مـن خـلال القـدرة على فهـم شـكل الألـم أو المعانـاة التي تترسـب في الـذاكرة الإنسـانية، ثـمّ تتحـول بـدورها لـذاكرة جماليـة للفـن حـول رؤيـة الواقـع وتحولاتـه وجذريـة التغيـر النفسـي والاجتمـاعي والاقتصـادي والإنساني بصفة عامة.

تثيـرُ الأوبئـة حالـة ارتقـاء أدبـي نحـو الممكنـات أو المضـمرات، تلامـسُ الحـس الأدبـي والشـاعري للفنـانين فتُكَـوِّنُ اللوحـة والـنص ترجمـة للمعرفـة الشـعورية، أو خروجـا مـن أزمـة الـذات أمـام قهـر المـرض والمـوت والحيـاة، الكتابـة وممارسـة الألـوان والحركـة المسـرحية صـوت يـؤدي خاصـية وجـوده، كمـا يتركهـا الـنص جسداً يقاوم النسيان وأثر الخلود.

1- مرجعية الأوبئة مفاهيم أولية:

يـرتبط مفهـوم الوبـاء بـالمجتمع، في ديمومـة وجـوده واتصـاله بالصـحة العامـة والعـدوى وسـرعة الانتقـال، كمـا يسـتوطن فتـرة زمنيـة معينـة قـد تطـول لأكثـر مـن عـام، يتسـم بـنفس الاعـراض التي يصـاب بهـا عامـة النـاس فـي المحـيط الاجتمـاعي أو الـدولي أو القـاري حسـب درجـة انتشـاره **"وكلمـة علـم الأوبئـةepidemiology مشـتقة مـن كلمـةepidemic(التي تعني وبـاء) المشـتقة بـدورها مـن المقطعـين اليونـانيَّينepi(بمعنى بـين) وdemos (بمعنى النـاس) إن أوبئـةً كسـارس وهـي تهـاجم مجتمعًـا سـكانيًا في مظهـر غيـر معتـاد لأحـد الأمـراض تتطلـب أبحاثًـا فوريـة، غيـر أن الأسـلوب المتبـع في البحـث في هـذه الحالـة هـو ذاتـه المطبـق على جميـع الأمـراض بصـفة عامـة، سـواء أكانـت غيـر معتـادة في نمطهـا أو في معـدل تكـرار الإصـابة بهـا أم متواجـدة بصـورة دائمـة في مجتمـع سـكاني مـا؛: « متوطنـة » فيـه. في حقيقـة الأمـر، تُسـتخدم الوسـائل نفسـها في دراسـة الأحـداث الفسـيولوجية الطبيعيـة مثـل الإنجـاب والحمـل، والنمـو الجسـماني والعقلي داخـل المجتمعـات السـكانية. و إيجـازًا يمكـن القـول إن " علـم الأوبئـة هـو علـم يـدرس الصـحة والمـرض داخـل المجتمعـات السـكانية"**[1] تنوعـت الأوبئـة عبـر الـزمن و أضـحت مـن الأحـداث البشـرية المتكـررة في التـاريخ، أهمهـا وبـاء الكـوليرا (1817 – 1823) الناجمـة عـن التلـوث المـائي أو الغـذائي وهي أكثـر انتشـارا في الأمـاكن الفقيـرة ،كمـا ظهـرت الإنفلـونزا الإسـبانية (1918 – 1919) حـدود نهايـة الحـرب العالميـة الأولى ثـمّ الإنفلـونزا الآسـيوية التـي انتشـرت عـام 1957 وثالثهمـا إنفلـونزا هونـغ كونـغ (1968 – 1970)، أنفلـونزا الخنـازير (2009 – 2010) الـذي أصـاب أكثـر مـن 60 مليـون شـخص في الولايـات المتحـدة، وبـاء إيبـولا (2014 –2016)حيـث ظهـر في قريـة بغينيـا عـام وانتشـر بوضعية محدودة في البلدان المجاورة غربي أفريقيا 2014.

شـهد أواخـر 2019م مطلـع 2020إلى يومنـا هـذا، وبـاءً جديـداً تمثـل في فيـروس كورونـا (كوفيـد 19) أكثـر اتسـاعا وغرابـة في فاعليـة وجـوده وأثـره وسـيطرته على اسـتقرار العـالم الـذي اسـتوطن جميـع قاراتـه، واختلـف العلمـاء في تحديـد ماهيتـه أو مصـدره بـين التجـارب الكيماويـة أو أصـله الحيـواني فكانـت مدينـة

[1]- رودولفـو ساراتشي، علـم الأوبئة مقدمة قصيرة جدا، ترجمـة: أسـامة فـاروق حسـن، مراجعـة: مصـطفى محمد فـؤاد، مؤسسـة هنداوي للتعليم والثقافة ط/ث1، 2015م، ص.14

(وهـان) في الصـين بـؤرة انتشـاره عبـر المحـيط القـاري، قـد أدى ذلـك لغلـق الحـدود بـين البلـدان والحجـر الصحي تفادياً لتفاقم الوضع.

تنتشـر الأوبئـة منـذ الأزمنـة السـحيقة لكـن أسـبابها اختلفـت حيـث يرجـع ذلـك لوضـعيات مختلفـة كالاكتشـافات القاريـة مثـل وبـاء (جـدري العـالم الجديـد) سـنة 1520 وهـو مـا صَـاحبَ وجـود الفيروسـات الجديـدة الوافـدة علـى المحـيط البشـري لقـارة أمريكـا أدت إلـى عـدم مقاومـة السـكانِ الأصـليين لتلـك الأمـراض المعديـة الحديثـة العهـد بالنسـبة لهـم، قضـى الجـدري وبعـض الفيروسـات المنتشـرة والمتنقلـة علـى معظم سكان أمريكا الشمالية والجنوبية، الذين لاقوا نحبهم إثر التحول الوافد من المكتشفين.

للأوبئـة أسـباب أخـرى قـد تتعلـق بالاضـطراب المنـاخي أو التلـوث البيولـوجي، كمـا "**تحـدث الأمـراض نتيجـة للإصـابة بالكائنـات الحيـة مثـل الفيروسـات والبكتيريـا والـأوليات (البرتـوزوا) ومثلهـا مثـل الكائنـات الحيـة فهي تنحـو نحـو التكاثر مـن أجـل الحفـاظ على نوعهـا لكـن هـذا التكاثر سـواء كـان في الانسـان او الحيـوان ينـتج عنـه سـموم ومـواد ضـارة عديـدة تـؤدي إلى تلـف أنسـجة العائـل الـذي تتكاثر فيـه ومـن ثـم إلى مرضـه وفي أحيـان أخـرى يـؤدي هـذا التكـاثر إلى مـوت العائـل الـذي تعـيش فيـه**"[2] أمـا عـن الأزمـة الصـادمة لفيـروس كورونـا وتـأزم المنطـق العلمي في حـل هـذا الوبـاء القاتـل تصـمت القضـايا الإنسـانية في محـك المـوت الزاحـف بـين القـارات فـلا الحـروب اليـوم تمـارس هيبتهـا ولا الأسـلحة تقـرر مصـير الانسـان.. ولا القوة، أو سلطة المال أو القرار، فقط شكل مجهري معدي يكفي ليمارس هالة الرعب.

يعجـز الانسـان أمـام ممارسـة الحيـاة العاديـة وينخفضُ سـعر البتـرول ويسـقط السـقف المـالي للعـالم يسـتيقظُ الانسـان ليهـرع إلى الـروح التي تناسـى وجودهـا وانفلـت الحـس الإنسـاني بـين تسـقيف الخبـر ومتابعـة الحـدث أو البحـث عـن الحلـول العلميـة والامـل في العـلاج أو اللقـاح، في المجـال الأدبـي اسـتطاع الكتـاب تقـديم صـور أدبيـة واسـتنفذ الفنـانون ألـوانهم في تصـوير الرؤيـة الخصـبة للإنسـان أمـام قـوة الوباء الذي يحاصر حياته وبيئته ومجال حريته وتحرره.

2- الكتابة والمحكي في زمن الوباء:

تنفـتح الكتابـةُ دائمـا مـع إبـداع الـذات في الوُجـود، وتشـفير الواقـع في معنـاه الكـوني، ويتـأثر الفنـان بموجـب فنـه بالمجـال النفسـي والسـلوكي والـذهني أيـن يتحـول المخيـال الثقـافي الجـامع إلى ترجمـة الواقـع المشـترك والتخيـل الواسـع ليُكـونَ عالمـه الخـاص عبـر الخطـاب الـذي ينتجـه نحـو المتلقـي" نتـاج عمـل وتفكيـر الإنسـان، وشـكل مثـالي في قالـب لغـوي للعلاقـات الموضـوعية التي تحكمهـا قـوانين معينـة في عالمنـا الموضـوعي الـدائم الصـيرورة، ولا يمكـن فهـم جـوهر المعرفـة دون كشـف الطبيعـة الاجتماعيـة لنشـاط الإنسـان العملـي، وتتركـز في المعرفـة قـوى الإنسـان الاجتماعيـة"[3] التـي يعيـد الفنـانُ تشـخيص المتغيـر، وتكـون المعرفـة بالانسـجام والديمومـة في فهـم التحـولات والظـواهر حيـث تصبح الموضوعات عالم المبدع في فتق حدود المعنى.

يخلـقُ الوبـاء حالـة أخـرى مـن الأدب أو البحـث في تـأثيرات هـذا الفيروس في المنـاخ الإبـداعي أو مـا يمكـن للأديـب أو الرسـام تقاسـمه مـع التغيير الوبـائي فـلا بـد مـن وجـود خلفيـات للباحـث في تفسـير كـل هـذه

---

[2]- شلدون و اتس، الأوبئة و التاريخ، المرض والقوة الامبريالية، ترجمة وتقديم، أحمد محمود عبد الجواد، مراجعة : عماد صبحي، المركز القومي للترجمة، إشراف جابر عصفور، القاهرة ، مصر، ط/1، 2010، ص.09

[3] - Al-hefnee, Abd el-monem. Encyclopedia of psychology & psycho-analysis. 4th ed. Cairo: madbouli bookshop, 1994. P.422

الظواهر أو تقديرها انطلاقاً من حالة الاستشراف مثل رواية: عيون الظلام-(The Face of Fear) التي توقعت وجود وباء كورونا (كوفيد 19) بجميع تفاصيله، كما تعددت العناوين الروائية حول موضوع الأوبئة منها رواية (وجه الخوف) (The Eyes Of Darkness)للروائي (دين كونتز) (DEAN KOONTZ) الصادرة سنة 1981م وهي تمثيل وصفي لانتشار الفيروس الذي يتحمل الظروف الجوية ويفتك بالإنسان في حروب فيروسية تقضي على الأخضر واليابس أما رواية (الطاعون) لألبيركامو التي نشرت سنة 1947م تشكيل تدريجي لحركة العدوى الوبائية في مجتمع يواجه المستعمر والمرض، في السنة نفسها التي صدرت قصيدة (الكوليرا) للشاعرة العراقية (نازك الملائكة) وغيرها من الأعمال البارزة تاريخيا.

تمنح رواية الطاعون (لألبير كامو) تفصيلا حياً ودقيقاً لاستعراض تفاصيل الوباء منذ ظهوره على الحيوانات مثل القوارض وانتقاله إلى الانسان حتى انتشاره السريع بين ربوع المدينة **"ولكن الحمى ارتفعت دفعة واحدة عند الظهر إلى الأربعين وكان المريض يهذي دون ما توقف ويقيء باستمرار، وكان ملمس غدد العنق مؤلماً وكان يبدو أن البواب يرغب في أن يبعد رأسه ما وسعه عن جسمه وكانت امرأته جالسة عند قدم السرير ويداها على الغطاء ممسكتان قدمي المريض برفق وهي تنظر إلى ريو وقال هذا:**

– **اسمعي يجب عزله ومحاولة معالجته معالجة استثنائية انني سأخابر المستشفى وسننقله في سيارة إسعاف"**[4] محكي يقارب الحقائق والوقائع في الجزائر مدينة وهران سنة1940 ، يتم توصيف الحياة الطبيعية للجزائريين عاداتهم وتقاليدهم ونضالهم أمام وطأة الاستعمار ومواجهة المصير البائس ضد الطاعون الذي يحصد آلاف الضحايا كل يوم، وقد أدى انتشار التخلف والجوع وبساطة التعامل الذهني والعلمي مع الأمراض إلى العدوى التي حصدت الأرواح، حتّى انحسرت الوضعية الوبائية وبدأ يقل عدد الضحايا أين يُعلن المجلس البلدي أن الوباء قد اضمحل لكن أبواب المدينة ستظل مقفلة وتبقى التدابير الصحية على سبيل حماية المواطنين تحسبا لعودة انتشار الوباء بين أرجاءها.

تمثلُ رواية(سماء بلا قاع) للأديبة التشكيلية (هانا أندرونيكوفا) التي نالت جائزة (مجنيزيا ليتر) توثيقا شعوريا للمرض وأعراضه النفسية، يصور الحكي تقاطعاً مع حالة الحجر أو الحس الروحي التي يحتجزه جسد المريض في مستويات الذي يحاول الانسان تفادي القدر ببعض من الأمل " بعد ستة أسابيع يزداد عمري خمسة أعوام، بعد ستة أسابيع أشعر بالضيق، من رائحة قرحة الفراش، والمُطهرات، والحوائط الزجاجية و أبواب المستشفيات، ومن الوجوه ومن كوابيسي، أشعر بالضيق من صمتك"[5] تحكي الكاتبة مقاومة بطلتها (إما) التي تعاني من مرض السرطان ولكنها تواصل ممارسة حياتها بالمتعة ذاتها الّتي تخفي فيها أعراض المرض.

ما بعد كورونا تتجه الثقافة والكتابة إلى فكر عقلاني حيث تصبح مهتمة بالعلوم واسترسالها في أجواء الكتابة لان القارئ الذي يمر بحالة الطوارئ والترقب سيجدد رؤيته للكون، ستتحول الرواية أكثر تفصيلا في تشييد مناعة اللغة ضد الموت لأن الفناء كان تهديدا دائماً وستجد الأحداث بدائل لافتراض حياة أكثر رحابة أما الشعر سينغلق أكثر في محيطه الوجداني باحثا عن الذات التي

---

[4]- ألبيركامو، الطاعون، ترجمة: سهيل إدريس، دارالآداب بيروت لبنان، ط/1، 1981،ص.24-25

[5]- هانا أندرونيكوفا، سماء بلا قاع، تر: خالد البرتاجي، ط/1، الناشر ابن رشد، القاهرة، 2018م،ص.13

قهرتها المخاوف ينطلق المسرح في تكثيف الحركة عودة للصوت والصخب والبعث لهدم سُكون كسر تواجده.

3- تمثيل الوباء في مسرحية (قاع) للكاتب العراقي (عمار نعمة جابر) نموذجا:

تواجه مسرحية (قاع) للكاتب العراقي (عمار نعمة جابر) خلية أزمة صحية كأفق عمودي (للقاص) داخل (الحجر الصحي) في سفينة خشبية وهدير البحر يرافق المشاهد ويصاحب المحكي الحواري بين الشخصيات من توصيف المكان كاستراتيجية توزيع الأدوار فوق الخشبة بين(السيدة) التي تلازمها حالات هيسترية بسبب فقدان حبيبها وزواجها مقابل المال وهروبها من العنف الذي يمارسه زوجها إلى فقدان صحتها العقلية تدريجياً، و(الفتاة) التي تعيد بناء الماضي الحضاري عبر (جَدِهَا) ومقولاته وحكمه، (القِسُ) المنحدر من أصول الدين وطقوس الدعاء لرفع الوباء أو حماية النفس البشرية، و(البدين) الذي يتقلب في سريره باحثاً عن النجاة والغذاء داخل السفينة ويعر(القاص) مكانة قصدية الرحلة المجهولة بين جدران تقضمها الجردان بعدما فتحت باب المكان، سرعان ما ستنهشُ ما تبقى وستنزل السفينة نحو قاع لا يحتمل الزمن والمكان ويدفن الماضي والحاضر وهنا أفق مفتوح للتاريخ حيث أنّ السومريين هم أول من تمكنوا من بناء السفن الضخمة، وصمموا خرائط البحار والمحيطات، وأتقنوا فن الملاحة، وقسموا التاريخ إلى قسمين ما قبل طوفان نوح وما بعده من الحضارة التي عاشها البشر، والمؤلف (عمار نعمة جابر) في المسرحية استخدم السفينة لشخصيات احتجزت لتَّعزِل مجموعة من المرضى عن البشرية بسبب إصابتها بمرض الجرب المعدي وفي عزلتها تُدرك أنها شخصيات مهملة في عالم الفوضى والمحيط اللاإنساني الذي رماها في عرض البحر وسرعان ما يستودعها في قاع كأنها نكرة لا تعريف لوجودها ولا حاجة لتواجدها.

أما في المعنى الرخو القابل للتأويل، قاعٌ يتمثلُ عبر الذوات الفاعلة في الحوار بين شخصيات (القاص-البدين-الفتاة-القس-السيدة) تَنَوُعٌ اجتماعيٌ لنماذج العرض لأنه يحملنا لمستوى- استعراض النص - مثلما يستعرض الكاتب الانعكاس الو اقعي ويثير المخيال الثقافي كبديل لمفهوم الإخراج وهذا ما نلامسه عبر عملية المشاهدة ومحاكاة المحاكاة " وفي ظل هذا الافتراض تأكدت فكرة الفن كمحاكاة لهذه الحقيقة الموضوعية البالغة الدقة-أي أن الفن أصبح مرآة لهذا العالم الخارجي الموضوعي وأصبحت دقة المحاكاة هي الهدف المنشود وفي ظل مبدأ المحاكاة"[6] وتتعدد المرايا في المسرحية لتكون منكسرة تخدشُ جدلية السؤال لماذا اختار المؤلف (عمار نعمة جابر) الحجر الصحي كحالة عرض و السفينة والبحر وهوس القابعين خارج حرياتهم أو هاربين إلى الخواء؟ لكنه الفن بمقاييس الفنان ومفارقاته، أين تكون البدائل الأبستمولوجيا للمعرفة النظرية لكل ذات، فالقاص هو الرجل الذي يَحبِكُ أسوار الحجر الصحي في السفينة ويشكلُ الصفات والموصوفات وينسجُ الانتقال الزمني من رتابة المكوث في السفينة إلى أن تصفه الفتاة بقولها:" الفتاة : (بغضب) أية وجهه تعني؟ .. يبدو انك تنسى مكانك الذي أنت فيه (تقترب من القاص) أنت في غرفة للحجر الصحي يا سيدي ، في سفينة تسير في عرض البحر.. لا يعرف أحد منا أين تتجه ، ولا متى ترسوا .. أنت مقذوف في سلة مهملات هذه السفينة .. أنت في القاع .. أنت في عداد الأموات بالنسبة لمن في الأعلى ، يلقون لك كالكلاب فتات قصاعهم المليئة بالأطعمة ، وسيقطعون ذلك متى شاءوا .. ليس لأحد منا حول ولا قوة فيما نحن فيه ... لكن .. لكن جدي كان يقول دائماً أنها سترسو يوماً ما ... لابد لهذه السفينة من ميناء ترسو إليه ."[7] تتخبط حوارات الأمل

---

[6]- نهاد صليحة، المدارس المسرحية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع،1994، ص.14

[7]- عمار نعمة جابر، مسرحية قاع، نادي.. الضحك، وزارة الثقافة العراقية، 2010، ص.13

بالنجاة وتساؤلات تتلاشى مع محورية الوجود، واضمحلال مصير انساني منفلت بلا حدود افتراضية للنجاة أو الأمل بالعودة، حيث يكون تعزيز قدرة المؤلف على ترميم الهوة باستنكار دائم، و انتقال مباشر لمؤثرات هدير البحر وهو صدى الصمت البشري.

4 - اللوحة التشكيلية مقاربة فلسفية للألوان:

الفنان المصري المغترب (عكاشة عبد الرزاق) يرسم الحقيقة الإنسانية في إطار اللوحة، تتمثلُ اللّغة التشكيلية عبر مجموعة من التراكيب الّتي تتصدرُ مثولها في التّرميز الجمالي للأشياء، وفي تحويل الو اقع لتفاصيل تتداخل وتتماثل في تأدية الخطاب بمختلف مو اقفه الانفعالية والتفاعلية علماً بالتواصل المستمر للأحداث والتغيرات التي تستجيب لها أنامل الفنان في ترسيم معالم الحياة وتشفير أثر الرحلة الفنية الصاخبة بالأضواء والملامح البشرية التي يراها بكل دقة تتدفق منها مدارج السؤال ومنفى الاستفهام الذي ينطوي في الصورة ويتخذ مركزيته، وقدرته على توطيد العلاقة البصرية في ترجمة الفكر.

تكون للذاكرة أثر قوي في تحديد إطار اللوحة وعمقا وكنهها، وللشخصية الفنية أثرها وسط مجتمع تكتظ فيه ثقافات غربية معاصرة لكن المخيال الثقافي يسيطر بشكل كبير في ترجمة الحس الجمالي، اقتطفت هذا الحوار الذي أجرته (بسمة شيخو) اليوم السابع من شهر نوفمبر 2015 حيث يصرح الفنان (عبد الرزاق عكاشة): "حين تتذكر أن خلفك الأندلس وحضارات كبيرة مرّت في المنطقة العربية فهذا يجعلك تنهض بنفسك، تثقّف نفسك وتصلحها بالقراءة وتطوير موهبتك وتجهيز نفسك للحياة. كنت مهدداً في الحياة الباريسية أن أتخلى عن حياتي الإبداعية ولذلك كان التحدي كبيراً، وفكرت أن يكون الفن وسيلة انتصار بالنسبة لي من خلالها أستعيد الأجواء الحميمية لمصر التي تسكنني وللثقافة العربية التي لم أتخل عنها لتكون وقاية لي، حتى لا أتوه في خضم الحياة ولا يستنزفني اليومي ولا تصطادني أنوار باريس. لذلك أنا أستعيد الماضي وطفولتي في أزقة قريتي المصرية لتكون قبعة على رأسي في الكِبر إلى أن أهرم" تكون الفترة الحميمة مع التّكوين الشَّخصي للفنان هي أرقى الفترات التي مارست صقل المناخ الفني لديه والثقافي الاجتماعي والسلوكي، وتمكن خلالها بوضع هويته الأساسية كحجر أساس يمكنه من مواجهة صراع الحضارات، واختلال المكان والزمان، ومن رفع إمكانيات البقاء و التميز لأنها تحمل المرجعية الوجودية لكينونته.

كما يؤكد هذا التّمسك البيئي والإنساني ما نلامسه في مقال (د. محمد الناصر من جريدة الاهرام – 27أوت 2010) " قدم عكاشة على مدار العامين الماضيين جسراً للتواصل بين فرنسا ومصر فى معرض أقيم بمركز محمود مختار الثقافى وكذلك حوار جنوب - جنوب الذى عقد بين (نيس) و (أسيوط) من خلال معرض ومؤتمر دولى يشرف عليه الفنان المصرى منصور المنسى رئيس قسم التربية الفنية بكلية التربية النوعية بجامعة أسيوط كما قدم عكاشة جسراً للتواصل صالون الخريف والمملكة العربية السعودية والذى أقيم مؤخراً فى مدينة الرياض وضم مجموعة من الفنانين السعوديين والفرنسيين بمبادرة من الفنانة السعودية هدى العمر." وهي حيثيات زمنية تشير لترجمة البيئة العالقة في ذهن الفنان كممارسة للهوية والتميز والخصوصية الدائمة التي يمكن أن تجتمع في مساره الفني.

تمثيل الموت والحياة واضطراب السياسة والاقتصاد بين محاولة الخلاص وتدافع الخسائر البشرية أمام موجه برد، أو حالة وباء قاتل أو الحروب والمجاعات ليست بحجم ضياع الانسان في هالة فقدان الذات الإنسانية محورلوحات الفنان (عكاشة سعيد) يحاول دمج خلية الألوان الباردة و الحارة التي تمزج الاختلاف والبحث عن مرجعية الاستقرارفي ظل الاختلال، مع جائحة وباء كورونا(كوفيد19) الأخيرة التي فتك بالكثيرمن الأرواح البشرية في المعمورة وخلف وجود هذه الجائحة .

في اللوحة تسيج للرأي أو الرأي المسيج المناوئ ترتقي الألوان والأشكال بصورة متزاحمة عن كيفية التفكيروالفكر المكيف حسب الوقائع فالحجريخزن و اقع الأفكاربتقلباتها وتنبني مزاجية متعالية، يبرز اللون الأخضرفي اللوحة حيث تصفه الفنانة (كلود عبيد: 2013) أنه "يرتبط اللون الأخضر بالصواعق، ويعبرعنه في الصين بكلمة من ثلاث أحرف (تشن) تعني الارتجاج أو الاهتزاز، (التجليات التي تحدثها الطبيعة في الربيع)والرعد هو علاقة بدء صعود اليانغ، ويتطابق أيضا مع العنصر البشري"[8] المتأجج بالخطابات المقيدة لا يكتفي الانسان بمعرفة الصواب او التأكد من صحته من حيث تختلف الذهنيات وتتصاعد الأوتاربين العودة إلى مجرى الوجود، "الأخضرهو استفاقة المياه البدئية، هو استفاقة الحياة فيشنو حامل الكون يصورعلى شكل سلحفاة خضراء الوجه فيلكا نيللي الآلهة الهندية للمادة الفلسفية المولودة من الحليب ذات جسد أخضر مثل فينوس فياداس.." (الألوان: ص.92) ويتخذ هذا اللون رموزالأبدية والخلود.

اللون الأزرق في اللوحة متسرب بين الفاتح المختلط والعميق "الأزرق أعمق الألوان يدخله النظر دون أية عوائق، ويسرح فيه إلى مالا نهاية حتى لكأننا أمام هروب مستمرللون هولون أثيري"[9] إعادة تصميم الو اقع لا بد بتفتيت وتفنيد محتوياته، والتوجه نحو فعل الرسم التشكيلي حسب القوانين الفنية وقدرة الفنان في فهم كينونة الحياة وإعادة تكوين فكرة الفهم الجمالي المفسرة للكون، لإثارة حالة موضوع ذا صلة بمضمون العالم وتغيراته.

[8]- كلود عبيد ، الالوان (دورها تصنيفها مصادرها رمزيتها ، ودلالتها ، مراجعة محمد محمود ، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ،بيروت لبنان ، ط/1، 2013م ، ص:93

[9]- كلود عبيد ، الالوان (دورها تصنيفها مصادرها رمزيتها ، ودلالتها ،ص.81

- اللوحة الملثمة حجر الألوان للأشكال:

يشعر الفنان باستياء ويعبر عن هذا الشعور بتجويف للون الأسود وتقليص الشكل مقارنة بالألوان وهذه اللوحة موجة من التساؤلات إلى متى سيظل البشر يهرعون خلف الأخبار الصحيحة والمزيفة؟، كيف يمكن تمويه الحقيقة وتجذيف التفاصيل؟ متى يعيش البشر بصدق مع عالمهم البشري؟ ربما يحس الفنان بالهوة بينه وبين الو اقع، والدور الخطير للإعلام "لقد أثبتت بعض الدراسات الدور الخطير الذي تقوم به وسائل الاتصال الحديثة في تنسيق الأخبار، بما يو افق مصالح الأقوياء كما يقول احد الباحثين في مجال الإعلام" [10] ولذلك يصبح تخوم الحقائق في جُبِّ التلاشي والتناثر بين ما هو صحيح وزائف و ما هو منطقي واستدلالي شوه وجه الوجود والتواجد، أو ربما هو انزعاج الفنان (عبد الرزاق عكاشة) من تسرب الوهم في حياتنا و اتساع هوة الايهام هذه الرؤية غير الواضحة شكلتها هذه اللوحة بعمق حيث لا تظهر العيون ويكون كل شيء مظلم ويتخلله فكر إعلامي قاحل، لا يمنح الثقافة الاتساع والحرية في أداء مهامه التوعوية والفكرية هذا الهدم خلف العديد من اللوحات التشكيلية عند الفنان الوجوه الشاحبة والملثمة والحائرة في مصيرها امام صراع لا متناهي يتعايش معه الفن بأقصى محتوياته المرئية و اللامرئية وكل المتغيرات الكونية تجد مفهومها العميق والدفين في عبقرية الفنان "فالكون الساكن والكون بالإضافة يتصارعان والشيء يكون في هذا غير ما يكونه في ذاك"[11] يرتبط (عبد الرزاق عكاشة) في تقاسم المشتَّرك الحسِّي مع المحيط والذاكرة والحضارة و المتغيرات في مقاربة عمق الأشياء، والتَّعامل الرُوحي المنفلت في أقصى سكون في الوجود الّذي يختبئ خلف دلالاته، ومعانيه، وجائحة كورونا خلفت ذلك المتسائل الدائم والمستفسر خلف الظواهر الكونية والإنسانية والإعلامية والمنظومة الدولية في مواجهة اختلال الحياة انحدارها نحو خلق أنماط فنية حداثية تتنامى وظاهرة الكوارث الطبيعية والبشرية في اكتساب هوية فنية يملكها ويتملكها الفنان (عبد الرزاق عكاشة) في لوحاته التشكيلية مع خطاب كورونا.

[10]- عبد القادر تومي ، الإعلام وأزمة الخطاب العولمي ، : قراءة نقدية في مرآة الإعلام المؤدلج ، مجلة الحكمة ، 14ديسمبر 2010،ص.4.

[11]- هيغل، فنولوجيا الرّوح، تر ناجي العونلّي، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ،لبنان ،ط/1 ،2006، ص.319

الخاتمة:

الفن هو فلسفة الحياة مقاربة تتجاوب مع الحس وتستطيع توخي العميق وتصوير المضمر، لعل الجمالية تخفيف للواقع ومخاطبة "أفكارنا حبيسة عقولنا لكن المعلومات إلى حد ما موجودة في العالم الخارجي، وأيا كانت هذه المعلومات فإنها موجودة في مكان ما بين العالم المادي المحيط بنا وبين العالم العقلي للفكر الإنساني"[12] بين الإدراك والوعي هناك جدلية بناء معرفي وفني تتخذ من العبقرية محاكاة الطبيعة الإنسانية والبيئية ومحاولة بناء عالم موجود بتفاصيله.

[12] - دفلين كيث، الانسان و المعرفة في عصر المعلومات، كيف تحول المعلومات إلى معرفة، تر: شادن اليافي، مكتبة الكبيعان، الرياض، 2001، ص.45